الثواب والمكافأة

تعددت المدارس والمناهج في تناول طرق الثواب والعقاب في تربية الأطفال، ولكن أغلبهم اعتمد على تربية الطفل من وجهة نظر الكبار البالغين العاملين على مصلحته. اختلفت د. «ماريا مونتيسوري» عن المدارس الأخرى لأنها لم تفترض نظرية ما، ثم حاولت تطبيقها لتثبت صحتها. بالعكس، تركت كل النظريات واعتمدت على مراقبة الأطفال، ثم تركتهم يعلمونها كيف تتفاعل معهم في مواقف الخطأ والصواب. اكتشفت د. «مونتيسوري» أن الطفل لا يستجيب للعقاب والثواب، وأن ما نراه اليوم هو عملية تشويه لفطرة الإنسان السليمة من خلال برمجته وتحويل مساره الطبيعي!

«برافووووو» مع تصفيق شديد وفرحة وحماسة!

رد الفعل الجميل هذا نراه في مواقف كثيرة بين الأهل والطفل منذ شهوره الأولى، ويستمر ويتطور ليصبح التصفيق قبلات، ولتصبح القبلات قطعة حلوى، ولتصبح الحلوى نجمة أو «ستيكر» في الكراس، ولتصبح النجمة درجة عالية في الامتحانات، وليصبح التفوق يقابله لعبة كبيرة، ولتصبح اللعبة الكبيرة مكافأة مادية تكبر مع العمر والزمن والهدف!

هكذا تحول الطفل إلى كائن كسول لا ينتج ولا يعمل ولا ينجح إلا إذا وجد حافزًا خارجيًّا! هكذا قتلت القدرة على تحفيز الذات وانضم ترس جديد صدئ إلى عجلة الإنتاج العطلة! ما الحل؟

د. «ماريا مونتيسوري» قدمت الحل عندما راقبت الأطفال الصغار يعملون في صمت وإصرار! لقد وجدت أن الطفل _الذي سيصير شابًّا بالغًا منتجًا فيما بعد_ يعمل في انهماك تام إذا كان مهتمًّا، وإذا كان النشاط هذا يثير فضوله، وقمة سعادة الطفل هو أن يتعلم! نعم! جائزة الطفل هي التعلم والإدراك والتطور! يوم يحاول طفل تسلق شجرة وينجح، أو يوم يحاول تركيب لعبة وينجح، أو يوم يحاول ارتداء حذائه وينجح، هذه هي المكافأة! الطفل بفطرته لا ينتظر حافزًا خارجيًّا! الطفل يريد أن يحاول ويترك يحاول حتى ينجح، وكل المطلوب من الأم المحبة والأب الفخور هو الابتسام والاعتراف بنجاح الطفل!

في الفترة السابقة ظهرت خرائط لتقييم سلوك الطفل _هل أنت طفل جيد أم لا؟_ بناء على نجوم أو دوائر توضع في خانات الأعمال المطلوبة من الطفل. رتب السرير؟ أعاد اللعب إلى أماكنها؟ أكل الطعام في موعده؟ ذاكر دروسه؟ إلى آخر الأعمال اليومية المطلوبة من الطفل «الشاطر». تلك الخرائط لا تفرق كثيرًا عن تقديم الحلوى أو المكافأة المادية، النتيجة طفل حسن السير والسلوك خوفًا من العقاب، أو طفل مدمن لتقدير من حوله! سيكبر هذا الطفل ويبتز كل من حوله ماديًّا أو عاطفيًّا ليحصل على «قطعة الحلوى».

الطفل السوي في تقدير د. «مونتيسوري» هو طفل يختار الصواب لأنه يسعده! طفل يشعر بالفخر والسعادة حينما يستطيع ترتيب غرفته، أو حينما يتعلم كلمة جديدة، أو حينما يتغذى جسده على طعام جيد! الطفل لن يختار الصواب إلا إذا فهمه وأدركه بحواسه حتى يصبح جزءًا من شخصيته!

إذا أردت الطفل أن فيحب القراءة يجب أن يراك وأنت تقرأ وتستمتع بالقراءة!

إذا أردت الطفل أن فيحب النظافة يجب أن يراك وأنت تنظف بيتك وأدواتك!

إذا أردت الطفل أن يعيد لعبه إلى مكانها فيجب أن يراك وأنت تغسل طبقك أو كوبك الفارغ وتعيده إلى مكانه!

لا يجب أن يراك تترك «عبء النظافة» على زوجتك أو على من تساعد زوجتك في أعمال المنزل. يجب أن يراك طفلك تستمتع بالنظافة والنظام والترتيب والجمال ومساعدة الآخرين حتى يمتص سلوكك ويختار الصواب!

في بداية عملها مع الصغار في أول بيت للأطفال أسسته، قدمت د. «ماريا مونتيسوري» للأطفال بعض الحلوى والشوكولاتة كمكافأة لهم على إتقان نشاط ما. فوجئت أن الأطفال أخذوا الحلوى ووضعوها في جيوبهم وعندما نظرت إلى وجوههم لم تجد سعادة أو حماسًا أو أي رد فعل تجاه المكافأة! في البداية ظنت د. «مونتيسوري» أن السبب هو رغبة الأطفال في تناول الحلوى في المنزل، فقالت لهم «يمكنكم أخذ هذه الحلوى إلى المنزل وهذه قطع أخرى يمكنكم أن تأكلوها الآن». نظر لها الأطفال نفس النظرة الفارغة ووضعوا الحلوى في جيوبهم!

عندها أدركت د. «مونتيسوري» أن فرحة الأطفال الحقيقية ولمعة أعينهم كان سببها إتقان النشاط أو تعلم مهارة جديدة. المكافأة الحقيقية كانت من الداخل!

تسمي د. «ماريا مونتيسوري» هذه المرحلة بالـ normalization وهي مرحلة يتسم فيها الطفل بالقدرة على العمل في هدوء بدون إزعاج من حوله، ويجد متعة في العمل وإتقانه، ويتعمق فيما يعمل بدافع حقيقي للعلم والمعرفة. تزداد قدرته على التركيز ويجد متعة في الطاعة، ويتميز بالاستقلال والقدرة على تحديد واجباته والقيام بها، بدون رقيب أو تذكير. تمثل هذه المرحلة الانضباط الذاتي والشغف الحقيقي.

مثلما تجاهل الأطفال المكافأة تجاهل الأطفال العقاب! في نفس المنطقة الفقيرة تلك، لم يفرق مع الأطفال المخربين الضرب أو الحبس أو الإهانة! كأن العقاب تسبب في طبقات عازلة من الجلد السميك وقد غطى الطفل وتسبب في تبلده! واجه الأطفال العقاب بنفس اللا مبالاة التي واجهوا بها الحلوى!